السكون في الحياة

وتماوت الانسان

اشرنا في مقتطف يوليو الماضي الى طبائع بعض الحشرات من حيث سكونها حتى لقد تمضي عليها سنوات وهي خاملة كأنها من الجماد او من بزور النبات ثم تبدو فيها الحياة بكل مظاهرها اذا ابتلت بالماء . ونحن مستطردون هذا البحث الآن الى الحيوانات العليا حتى الانسان

الاسماك — نشرنا في مقتطف اغسطس سنة ١٩١٠ مقالة للمرحوم علي ابي الفتوح باشا في وصف سمكة كبيرة وجدت حية في قاع ترعة صيفية على مقربة من ناحية شندويل شمالي مدينة سوهاج على عمق ثلاثين سنتمتراً تحت سطح الارض . والترعة المذكورة تيلية لا تصل اليها المياه الا في زمن الفيضان فتبقى جافة من دسمبر الى اغسطس . ولما وجدت هذه السمكة كان الشهر يونيو فوضعت في الماء وعاشت فيه نحو اربعين ساعة ولذلك فهي تسكن ثمانية اشهر منقطعة عن الحركة وتبقى حية . وكل الاسماك التي من نوعها تسكن مثلها اذا غاض الماء او جف فتغور في الطين وتسكن فيه الى ان يأتيها الماء ثانية اما بالمطر او بالفيضان

والشبوط او سمك المشط يختفي في الطين في فصل الشتاء حيث يشتد البرد فيعمر سنين كثيرة حتى لقد يبلغ عمر السمكة منه مائة سنة وتبلغ زنتها خمسين رطلاً مصرياً

والانكليس من الحيوانات التي تغور في الطين وتسكن فيه اذا غاض الماء ولكنه قلما يفعل ذلك في بحيرات مصر لان الماء لا ينقطع منها

ومن هذا القبيل مزدوجات الحياة (الامفيبيا) اي الحيوانات التي تعيش بعض عمرها في الماء وبعضه في اليابسة كالضفادع فانها تستطيع ان تغور في الطين وتسكن فيه زمناً طويلاً ولعلّ ذلك اصل ما يقال من ان حجراً كسر فوجدت فيه ضفدع فاذا كان الطين صلباً ووجدت الضفدع فيه حية بالغ الخيال في صلابة الطين فجعله حجراً

والزحافات كالسلاحف والتماسيح والافاعي تشتو كلها وتنقطع عن الحركة فتراها في جنان الحيوانات في الجيزة ساكنة نائمة اكثر الايام ولاسيما في فصل الشتاء . واحب ما عليها ان تختفي حينئذٍ في الطين او تحت الهشيم . ويقال ان التماسيح

يدخل الطين ويختفي فيه سنة كاملة من غير طعام . قال تفنت في كتابه المشهور عن جزيرة سيلان انه شعر ذات ليلة بحركة تحت فراشه ولم يعرف سبب هذه الحركة الا في الصباح اذ خرج عساح من تحت الارض التي عليها فراشهُ

والحيوانات اللبونة يشتو بعضها في الاقاليم الباردة والمعتدلة كالدب والارنب والسنجاب والقنفذ والخلد والمرموت وبعضها يبطن حجرهُ بالريش والصوف متبعاً للبرد في فصل الشتاء

في طبائع الحيوانات كلها ادوار تنقضي وتعود في مواعيدها لعلاقتها ببعض الاسباب الطبيعية كالنوم ليلاً والسكون في جوف الارض اذا غاض الماء والاستكنان في جحر اذا اشتد البرد . ومن هذا القبيل نوم الانسان وهو عام يشترك فيه كل احد ويتكرر كل يوم ويكون كثيراً في سن الطفولية يبلغ ٢٠ ساعة او اكثر ثم يقل رويداً رويداً الى سن الشيخوخة ولكن يحدث احياناً ان يطول هذا النوم او السكون فيبلغ اياماً كثيرة ويسمَّى حينئذٍ غيبوبة والغالب ان يأتي عرَضاً كانهُ مرض

ذكر السر ارثر شبلي من اساتذة كمبردج ان فتاة دخلت غرفة فاعترتها الغيبوبة فجأة وبقيت كذلك ٣٨ ساعة . وفتاة اخرى دخلت غرفتها لتغير ثيابها ثم وجدت ملقاة على سريرها غائبة عن الصواب وبقيت كذلك ١٤ يوماً

لكن الغيبوبة قد تكون خاضعة للارادة فيغيب المرء قصداً وينقطع عن الطعام والشراب اياماً كثيرة . ويقال ان دراويش الهند المعروفين «بالفقراء» عارسون ذلك حتى ينقضوهُ فيقام الواحد منهم ويدفن في قبر كأنهُ ميت ويترك فيه اياماً كثيرة ثم ينبش فيستيقظ كما يستيقظ النائم . روى السر ارثر شبلي ان فقيراً من فقراء الهند اوقع نفسهُ في الغيبوبة فوضع في كيس وخيط الكيس ووضع في صندوق مقفل في غرفة داخلية من قصر رنجيت سنغ . ولهذه الغرفة باب واحد وليس لها كوى فاقفل الباب وختم بختم رنجيت سنغ نفسهِ وكان من الذين لا يصدقون ما يدعيهِ هؤلاء الفقراء فوضع حول الغرفة حراساً من حرسهِ الخاص وكانوا يبدلون بغيرهم كل ساعتين ووضع عليهم الرقباء . فاقام هذا الفقير في قبرهِ ستة اسابيع وكان هناك رجل انكليزي حضر دفنهُ وراقب المدفن كل مدة بقائهِ فيهِ وحضر اخراجهُ منهُ فقال انهُ لما فكَّت الختوم كانت سليمة ولا شيء في جدران الغرفة يدل على ان احداً دخلها وكانت مظلمة والصندوق في احد جوانبها وهو مقفل ومختوم ولما فُتح وجد الكيس فيهِ وقد

علاهُ العفن ففُتح واذا الفقير فيهِ منقبضٌ على نفسهِ. وكان هناك طبيب فجس نبضهُ ولم يشعر باقل ضربان فيهِ ثم جاء خادم الفقير وصبَّ ماء سخناً على رأسهِ ووضع عليهِ كيساً سخناً ونزع الشمع الذي كان قد سدَّ بهِ منخراهُ واذناهُ نزعهُ بسكين وفتح فمهُ بكل جهد وسحب لسانهُ وفرك اجفانهُ بزبدة وبعد قليل جعل الفقير يفتح عينيهِ قليلاً قليلاً ويحرك اعضاءهُ وكان جلدهُ قد تعفن وتجمد فجعل يلين وينبسط وينتفخ ثم فتح فاه وقال لو نحيت سنغ بصوت لا يكاد يسمع «أصدقت الآن»

وقال السر اوثر ايضاً ان الاطباء شاهدوا حوادث كثيرة من هذا القبيل في اوربا من ذلك ما رواهُ الدكتور تشين من اطباء دبلن المشهورين وهو ان ضابطاً من ضباط الجيش برتبة كولونل كان يتاوت وقتما يشاء وطلب منا ان نشهد تماوتهُ وكنا ثلاثة فجسسنا نبضهُ فوجدناهُ خيطيًّا ضعيفاً ولكن قلبهُ كان يخفق خفقاناً عاديًّا فاستلقى على ظهرهِ واستكنَّ فامسكت بيمينهِ أجس نبضهُ ووضع الدكتور بينارد يدهُ على قلبهِ وامسك المستر سكرين مرآة لطيفة امام فيهِ فشعرت بنبضهِ يضعف رويداً رويداً حتى زال شعوري بهِ. وانقطع شعور الدكتور بينارد بخفقان قلبهِ. والمرآة التي كانت في يد المستر سكرين امام فيهِ قلت آثار التنفس فيها الى الدوجة القصوى. ثم فحص كل منا نبضهُ وخفقان قلبهِ وتنفسهُ دواليك فلم نجد فيهِ اقل اثر للحياة وجعلنا نتداول في الامر فاجمعنا على انهُ تطرف في هذه التجربة قليلاً وعزمنا ان نذهب ونتركهُ وبعد نصف ساعة خرجنا ونحن ننظر اليهِ فرأينا فيهِ شيئاً من الحركة فعدنا وجسسنا نبضهُ فوجدنا انهُ جعل يتحرك وكذلك قلبهُ بدأ يخفق خفقاناً ضعيفاً وبعد قليل جعل يتنفس ويتكلم همساً ثم استرجع قواهُ كلها فدهشنا وثبت لنا انهُ يتاوت فيصير كالميت فعلاً. انتهى

ونحن اعرف شابًّا من دير القمر نام مرة نوماً مرضياً وبقي في غيبوبة اسبوعين او اكثر لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا يفتح فاهُ واستيقظ بعد ذلك ثم عاودتهُ النوبة وآخر ما تذكرهُ من امرهِ انهُ لم يعش طويلاً بعد ذلك

والخلاصة ان سكون الاحياء او انقطاع ظواهر الحياة منها امر شائع فيها كلها على انواعها وهو يختلف من النوم البسيط بضع ساعات كل يوم الى السكون الذي يدوم بضع سنوات ومما يحدث لآفة مرضية الى ما يقع اختياراً